كافافي في شعر التجربة التاريخية

بقلم البروفسور سي م . باورا
عرض وتلخيص : محي الدين اسماعيل

يقدم لنا الشاعر اليوناني قسطنطين كافافي ، حالة خاصة من حيث هو شاعر وانسان . فقد ولد هذا الشاعر عام ١٨٦٨ ، وقضى الشطر الاعظم من حياته في الاسكندرية ، حتى توفى فيها عام ١٩٣٣ . وقد انبتت الصلة ، بينه وبين الحياة المعاصرة ، كما لم تقم بينه وبين العالم المتحضر القديم اية صلة عادية مباشرة . وهذه الحالة ليست فريدة في نوعها . فالولايات المتحدة قد برهنت اكثر من مرة ، على انها عاجزة عن تقديم احساس مطمئن بالبيئة ، الامر الذي دفع ببعض الكتاب الى ان يهجروا الولايات المتحدة ويستوطنوا اوروبا ، ليعيدوا علاقات الجنس واللغة التي انفصمت فيهم . فما فعله هنري جيمس وت.س اليوت في بريطانيا ، وما فعله ستوارت ميريل وفرانسس فيلي ـ غرفن في فرنسا ، لم تكن سوى حالات نموذجية لعدد كبير من الناس هجروا بلادهم لانهم لم يستشعروا الانسجام في اوطانهم ، فذهبوا يبحثون عن بيئة مضمونة وراحة في الروح .

ان كافافي يوناني يتحدث اللغة اليونانية ، ولكنه لم يعش في وطنه الام ، بل عاش في مدينة الالسن العديدة .. مدينة الاسكندرية النصف الشرقية التي لم تكن تقاليدها الاسلامية والمصرية لتعني اي شيء بالنسبة اليه . فلقد كان كافافي يفتقر الى شيء اكثر مما كان يفتقر اليه هنري جيمس في نيويورك . كما انه لم يكن شبيه مواطنه جون بابادايما نتوبولس الذي اشتهر كشاعر فرنسي تحت اسم جان موريلس . فكافافي لم يختر له موطنا في القارة الاوروبية ، بل اقام في الاسكندرية ، وانفصم عن الحاضر ، وارتبط بالماضي ، ذلك العالم الذي يعرفه من الكتب فحسب ... الماضي الذي عاش فيه بقوة عبقريته لا غير !

فافتقار كافافي الى السناد BACKGROUND قد جعل اتجاهه مثيرا لاكثر من سبب واحد . فهو لم يعمد الى استخدام الانماط اليونانية او الاوروبية في شعره ، كما لم يكن مدينا للشرق في شيء. فاسلوبه هو من ابداعه لا غير ، اذ هو انعكاس لمزاجه وظروفه الذاتية، يقوده في ذلك كله ، حسه الغريزي بالالفاظ . فلقد اخضع كافافي اللغة التي كان يتحدث بها ، لاغراضه الشعرية . وفي ذلك ما فيه ، ولا ريب من المزالق والمخاطر ، لانه قد اقدم ، اذ اقدم على السير ، الى ارض بكر عذراء لم يسبقه اليها احد من قبل . بيد ان حسه المرهف بالالفاظ ، وروحه النافذة الثاقبة البصيرة قد دلته على ما ينبغي ان يقوم به .

وبالرغم من ان كافافي يقف خارج نطاق التقاليد الاوروبية ، بل خارج اي نطاق سابق ، الا انه يمثل روحا جديدة في الشعر ، لاكثر من سبب واحد . فهو واقعي ، بالسليقة ، اذ ان ما يكرث به نفسه، اولا وقبل كل شيء ، هو مسرح الحياة الواقعي . ولقد وجد في مسرح الحياة هذا ضربا معينا من الاثارة ، كما نظر اليه نظرة زاهية مشرقة من خلال تجربته هو نفسه . ولعل هذا هو مرد طاقته الخلاقة . فهو لم يكن معنيا قط باستقصاء الخيالات واستكشاف الاحلام ، بل حاول دوما ان يضفي على الماضي ذلك التنوع الذي وجده في محيطه المعاصر الذي عاش فيه . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، كان حس كافافي حسا طبيعيا غريزيا ، فلقد درس هذا الشاعر اثار الماضي الخالدة، ولكن دراسته هذه لم تغمض رؤياه ابدا عن طبيعة الشعر الحي ، بل على العكس من ذلك قد امدته هاتيك الاثار بجوهرها الحقيقي وصفاتها التي لا تتغير .

لقد كان كافافي رجلا عصريا من حيث نظامه الفكري ، وان وحيه لم يكن وحيا طبيعا متدفقا ، بل كان ذلك الوحي يواجه صرامة الحكم النقدي الذي يمارسه الشاعر نفسه ، والذي كان لا يطمئن ابدا للعواطف المتدفقة الجياشة التي لا ضابط لها . فشعره الذي خضع للنقد الصارم العنيف ، هو من ذلك الضرب من الشعر الذي يتسم بسمات الامعان والتمحيص والمعاناة . ولا غرو ان يتطلب هذا المزيج من المواهب حقلا ملائما للتعبير . ولقد وجد كافافي هذا الحقل في مدينة الاسكندرية ، اذ كتب فيها جميع قصائده الرائعة . فان كافافي هو من ذلك النمط من الناس الذين يبحثون عن موضوعات تمكنهم من العثور على الاهمية العميقة للحاضر . ولو لم يكن كافافي متمتعا بتلك العبقرية التي قادته خلال تجاربه الشعرية لظل ذا مدى شعري ضيق . ولكن كان على كافافي ان يبتدع لنفسه ركيزة او سنادا يعتمد عليه . فعمد الى تقاليد العالم الاغريقي في شرقي البحر المتوسط يستلهمه باعتباره مصدر هذا السناد . ففي الماضي وجد طمأنينته ، لانه ، في النهاية ، قد احس بانه ينتمي الى ذلك العالم القديم ، وانه يتحدث بلغته ، ويشارك في شمسه وهوائه . فهو لم يعن بعصر الاغارقة الكلاسيكيين ، ولم يشارك في مفهوم هيلاس الرومانتيكي ، من حيث ان هذا المفهوم عالم من عوالم الالهة والابطال ، وموطن الحرية ومهد الحضارة . ولم يكن لديه ايضا ذلك الحب البرناسي للجوانب النحتية والتصويرية من الحياة الاغريقية . فالذي كان يكرث به نفسه ، اولا وقبل كل شيء ، هو ما يفضي به الى الاحساس الصادق بالطمأنينة ، الا وهو العالم الاغريقي المتباين الذي انتشر يوما ما من جزيرة صقلية الى اسيا الوسطى ، والذي عانق اناسا لم ينحدروا من اصلاب يونانية ، ونعنى بهم اولئك الذين تحدثوا اليونانية بلكنة اسيوية .. ذلك هو موضوع دراساته ، وتلك هي النغمة الشائعة في شعره الذي تتوافر فيه خصائصه الفريدة .

فلقد تشبعت روحه ذلك كله ، بعناية الرجل الباحث المدقق . فهو لم يعن بهذه الدراسات لما فيها من عزلة وانعزال ، ولكن لصلتها الوثيقة بالحاضر ، ولما فيها من قوة جذب دائمة ، بل لما فيها من سحر حي يتناول التناقضات الدراماتيكية .

هكذا .. تحول كافافي فغدا شاعر العالم الهليني ، لانه وجد في هذا العالم الجذور التي افتقدتها الاسكندرية المعاصرة ، كما وجد فيه السناد الذي يضيء فصولا عديدة من التجربة الانسانية .

ان هذا الكشف قد مكن كافافي من ان يحل تلك المعضلة التي تقض مضاجع عدد كبير من الشعراء المعاصرين . فالشاعر بحاجة الى رموز واساطير ، من اجل ان يقيم الشكل المستقبل لافكاره التي لم تتخذ شكلا بعد ، لذا فان عليه ان يقيم تلك الرموز ، بغية نقل معانيه في امدها الاقصى . وللشعراء الاغريق القدامى وفر من الصور والرموز الميثولوجية ، تلائم اي موقف من المواقف . اما العالم الحديث فيفتقر الى مثل ذلك النظام الذي تشيع في ارجائه . فعندما بدأ مالارميه بكتابة شعر رمزي مطلق ، وجد رموزا في تجربته الذاتية ، ومن هنا وجد قراؤه عسرا في القبض على ناصية معانيه التي كان يذهب اليها . وقد ادرك شعراء اخرون هذا العسر ، فحاولوا ان يتغلبوا عليه ، بان اقاموا لانفسهم ميثولوجيا خاصة بهم ، او تبنوا ميثولوجيات معينة . على ان كافافي ، اذ كان يستخدم الرمز في شعره ، لم يكن يرهق قراءه في معرفة

الاقاصيص التي يشير اليها في شعره شأن بيتس وايليوت ، كما انه لم يكلف احدا ، بايضاح ما كان يهدف اليه في هاتيك الرموز التي كان يستخدمها في شعره ، واننا لنستطيع ان نفهم شخصيات كافافي على الفور ، ونعجب بهم على الفور ، دون الرجوع الى اي شيء اخر . فشخصياته واضحة ، ولها قوة جذب مباشر . وكما كان شعراء الرنيسانس قادرين على استخدام آلهة اليونان ، من اجل اغراضهم الشعرية بوضوح ، كذلك استخدم كافافي الشخصيات التاريخية الاغريقية بوضوح ، لا يقل عن وضوح الهة شعراء الرنيسانس انفسهم. فشخوصه ادميون حقا ، فيهم واقعية ووضوح .. فهي رموز لها صفة الشمول ، بمعنى انها تمثل انماطا خالدة باقية .

بيد ان كافافي ، لم يستطع ان يكشف طريقه النهائي دفعة واحدة اذ ان قصائده الاولى التي كتبها قبل عام ١٩١١ تدل على انه كان في عناء من هذه التجربة ، وانه ـ يومذاك ـ لم يكن قد انتهى بعد من هذه الطريقة ، بصورة نهائية.

في هذه المرحلة ، لم تكن افكاره قد اندمجت بصوره بعد ، بل كان في قصائده التي كتبها انذاك ، يبدأ بفكرة تجريدية ، ثم يختار لها صورة للتدليل على اهمية هذه الفكرة ، دون تحقيق الدمج الكامل بين الفكرة والصورة ، في وحدة واحدة ، ومثال ذلك انه قد عنى في قصيدته « ترموبيلي » ، بنمط خاص من النبل الانساني . وان المثال الذي احتوته هذه القصيدة ، كان ذا اهمية بالغة ، بالنسبة اليه ، غير انه قد تناول هذا الموضوع من زاويته الاخلاقية اكثر مما تناوله من زاويته التصويرية . فكانت النتيجة انه طرح امامنا « موقفا مصورا » لا غير ، وان قصيدته هذه تحتوي على اجواء سحيقة القدم ، لاسيما عندما تلامس بعض القضايا العليا :

« الشرف لاولئك الذين اقاموا الحدود
على حيواتهم ، والذين حرسوا ترموبيلي ،
الذين لا يجانبون واجبهم قط ،
بل كل ما يفعلون قويم ونبيل ... »

كان اهتمام كافافي بالتاريخ ، اهتماما زاهيا ، فقد تعلم منه الدروس ، على طريقته الخاصة ، فرأى في كثير من الاحداث امثلة ثابتة على المعضلات الانسانية . وكان ، اول الامر ، يتوخى استخلاص الحقيقة الثابتة في الحدث ، ومن ثم ، تقديمه الينا بطريقته الخاصة .

ففي قصيدته « الطروادیون » يرى في حصار طروادة مثالا على الحالة الانسانية ، التي يجد فيها الانسان نفسه انه قد قضي عليه بالدمار ، وهو مع ذلك لايكف عن النضال ، بل تواتيه بوارق الامل بين حين وحين . وفي قصيدته « ١٥ مارس » يلتقط كافافي قصة ذلك العراف الذي انذر قيصر من يوم ١٥ مارس ، ثم يحاول كافافي ، ان يجعل من ذلك درسا للانسان وهو يستمتع باحتياز السلطة .. وفي قصيدته « الله يهجر انطونيو » يقدم لنا الشاعر قصة رواها فلوطرخوس ، وافاد منها شكسبير . تلك هي قصة انطونيو الذي هجره هرقل .

... وقل وداعا ..وداعا للاسكندرية ، فقد بؤت بالخسران .

وفي قصيدته « ايثاكا » يرجع كافافي الى تعثر اوديسيوس في عودته الى الوطن ، ويستخلص منها الشاعر مغزى عميقا ، هو ان البحث اهم من الغاية من البحث ، فالبحث يقدم لنا تجارب تفوق كل تقييم ،وان هذه القصائد جميعها متماسكة متلاحمة ، على نحو اشد اسرا مما نجده في قصيدة « ترموبيلي » . وعندما كان كافافي يكتب هذه القصائد، تمكن من استكشاف ذلك النمط من الفن الذي يلائم مواهبه ، والذي من شأنه ان يخرج لنا آثاره الموسومة بخصائصه الذاتية . وهكذا اقدم كافافي على طرح الموقف الذي يستنبطه من الماضي ، طرحا موضوعيا، اذ يمر عليه دونما تعليق . وهذا مانجده في قصيدته « الخطوة الاولى » التي كتبها في هذه المرحلة . وفيها يعرض كيف ان الشاعر« ثيوفريطس» ينعى على الشاعر الشاب « يومينس » يأسه من تحقيقه الاشياء العظيمة التي يأمل تحقيقها . فيقول له : ان محض بدايتك كشاعر ، هو امر عظيم بحد ذاته . وفي قصيدته « آثار الاقدام » نجد كافافي اكثر تكاملا ونضجا ، اذ يحدثنا كيف ان كهنة « نيرون » كانوا قلقين في مذبح المعبد ، وهم يصيخون السمع الى صوت رهيب .

« انهم ليفهمون معنى ذلك الصوت ،
وهم الان يعرفون وقع اقدام المنتقمين . »

فالموقف هنا ، كما يفهم من سياق القصيدة ، موقف مستقل ، واللمسة الشخصية ، قد وقعت تحت طائلة ضبط عنيف للنفس . والمهم في هذه القصيدة ، هي تلك اللحظة التي يتضح فيها مصير نيرون ، ذلك المصير الذي يسير بخط معاكس لنيرون ذاته . وما نجده من موضوعية في هذه القصيدة ، نجده في قصيدته « الملك ديمتريوس » . وفيها يحدثنا كافافي كيف ان ديمتريوس يخلع كساءه المذهب ، ويلبس كساء بسيطا ويتهيأ للهروب ، بعد ان انفض عنه اهل مقدونيا .

كل هذه المواقف يطرحها علينا الشاعر بحس تاريخي دراماتيكي دقيق . وان سر القوة في هذه المواقف تكمن في كونها معرضة دائما للتكرار . وان مثالا واحدا من هذه المواقف يعيد الى الاذهان مواقف اخرى قد وقعت فعلا في الحياة . فكافافي هنا يستخدم الماضي ، لتفسير الحاضر ، ولتفسير الطرائق التي لاتتغير ابدا في حياة الانسان .

وما لبث هذا الضرب من الفن ، عند كافافي ، ان ازداد تعقيدا وعمقا ، ففي قصيدته « بانتظار البرابرة » التي كتبها قبل عام ١٩١١ ، يبتدع كافافي « اسطورة حقيقية » وهي قصة فيها ثروة وغنى ، ولها اهمية وشمول . فالمشهد ينسحب امامنا في نهاية العالم القديم ، حيث البرابرة الغزاة يتاهبون لدخول المدينة الكبرى . فنجد سكان تلك المدينة يأخذون اهبتهم لاستقبال الغزاة بدلا من ان يصيبهم الفزع . ومجلس الشيوخ ينفض ويكف عن تشريع القوانين ، ذلك ان البرابرة سيأتون غدا وهم الذين سيتولون التشريع في البلاد . والإمبراطور قابع على عرشه في بوابة المدينة ، لابسا تاجه منتظرا قدوم القائد ومعه جميع الموظفين ، وهم لابسون ابهى حللهم تهيؤا لهذه المناسبة .. والخطباء متغيبون .. « لان البرابرة يكرهون الخطب ، ويصيبهم الضيق منها ! »

صدر حديثا :

عيناك قدري

قصص

بقلم غادة السمان

الثمن ٣ ل.ل

منشورات دار الاداب

فالمشهد امامنا مليء بالمشاعر المتناقضة والالوان الحادة . غير ان كافافي لايقنع بذلك كله ، بل يبلغ الذروة عندما يسأل : « لماذا كل هذا؟»

ويختتم كافافي هذه الدراما الانسانية ، دون ان يمسها بتعليق ، والكلمات الاخيرة تكشف عن مدى الفراغ الهائل الذي يحس به كل انسان حيال هذه الخاتمة .

ان كافافي يقدم في هذه القصيدة موضوعا شائعا . فقد كتب الشاعر الروسي فالييري بروسوف قصيدة « الهون القادمون » ، والتي يحيي فيها الغزاة الذين يجتاحون عالما بحاجة الى دم جديد . وكتب ايضا الشاعر الالماني ستيفن جورج قصيدة مشابهة . على ان كافافي في قصيدته هذه يمس الموضوع بروح مختلفة تمام الاختلاف . فالقصيدة ليست انعكاسا لرغباته ، ولكنها ثمرة ما احس به عند الاخرين ... ان كافافي ساخر في قصيدته هذه ، اذ تجد عنده ذلك الخبث والمكر الرفيقين ، وهو يصف اردية القناصل والكبراء ، وعصيهم التي يتوكأون عليها وحليهم وحللهم .

ان مايحتويه هذا الضرب من الفن من عمق وبراعة ، يمكن ان نجده في قصيدة « الملوك الاسكندرانيون » ، التي كتبها عام ١٩١٢ ، وهي القصيدة التي تقص علينا قصة حفل اقيم ايام كليوباطرة ، عندما كان اطفالها يذهبون الى ميدان التريض ... لقد كانت مناسبة شعبية عظمى فالجنود في الشوارع ، والاطفال ينصبون ، على الملأ ، ملوكا !! .. « والاسكندر الطفل سموه ملكا على ارمينيا وميديا والبارثيين ».ويتضمن موضوع هذه القصيدة تفسيره لذاته بذاته . فالاسكندرانيون اذ يخرجون للمشاركة في هذا الاحتفال ، لاتخدعهم من هذا الاحتفال مظاهره ولا بهرجه ، بل هم يخرجون لا لشيء الا لان الشمس دافئة ، وان الاحتفالات التي تجري في ميدان التريض مظهر فني جميل لا غير !.. اما الاحتفال فهو الفاظ فارغة وحسب !

ولعل السحر الذي يأسرنا في هذه القصيدة ، مرده الى الصدق العميق الذي نجده فيها ، بحيث نكاد لانشك قط ، ان كل ماقاله كافافي قد وقع فعلا ، بل نتمنى ـ اذا ماساورنا الشك ـ ان يكون كل ماقاله قد وقع فعلا .. ان في هذه القصيدة لسحرا آسرا لافكاك منه !

فالتاريخ القديم للاسكندرية ، هو العصر الذي اجتذب كافافي . على ان كافافي لم يقل لنا شيئا عن كليوباطرة ، هذه البطلة التي يستطيع ان يفخر بها كل انسان ، بل ركز كل اهتماماته على ابنائها الصغار : قيصرون بن يوليوس قيصر ، والاسكندر وبطليموس ابني مارك انطونيو . وتتأتي اهمية هذه القصيدة من اهمية مصرع قيصرون وبروز الاسكندر في اثره . ولعل اروع مافي هذه القصيدة ، هو مايكشف عنه كافافي من هاتيك التناقضات التي يعانيها القلب الانساني على الدوام .

ولعلنا نستطيع تقويم قصيدة « الملوك الاسكندرانيون » وما فيها من فن ، اذا القينا النظر على ذلك الفصل الذي كتبه فلوطرخوس ،والذي سجل فيه ان انطونيو وكليوباطرة قد اقاما حفلا كبيرا في ميدان التريض وجلسا على عرشين ذهبيين . وقد أعلنت كليوباطرة ، في هذا الحفل ، ملكة على مصر وقبرص وليبيا وسوريا السفلى ، بينما منح اولادها الثلاثة الالقاب . فلبس الاسكندر ملابس ملك فرسي ، كما لبس بطليموس الرداء المقدوني . ولقد تمكن كافافي ان يسحب هذا المشهد امامنا بكل امانة وصدق ، واكد دور الاطفال الثلاثة ودور الجماهير .

وفي هذه القصيدة الملامح الاساسية لفن كافافي في دور نضوجه ، وفيها تبدو قدرته الخارقة على استخلاص كل ماهو شامل كلي ، في سجلات التاريخ .

ان كافافي قد استمد مادة قصيدته هذه من روائع الادب الاغريقي، واغناها بتفسيرات خاصة ، كانهيار طروادة ومصرع آخيل الشهير ، ومصرع ساربيدون ، غير انه ماعتم ان هجر هذا السبيل ، وركز كل جهده على العصور الهلينية والاغريقو ـ رومانية والبزنطية ، بكل ما تحتويه هذه العصور من قضايا مشوشة غامضة وشخصيات غريبة . فمخيلة كافافي الغريبة ، قد دفعته الى التعلق بالشخصيات والمجتمعات التي عملت على خلق تناقضات غير عادية . وهذا الدافع بالذات ، هو الذي دفعه للكتابة عن شخصيات يغلفها الغموض من امثال نيرون ، وجوليان والبطالسة ، والسلوقيين والمسيحيين الاوائل ، والنحاتين والرسامين في العصور الاخيرة للامبراطورية الرومانية وحكام بزنطية والامراء المقيمين على تخوم العالم الهليني . اما عصر هيلاس العظيم ،بكل مافيه من بساطة رفيعة ، فلم يكن موضوعا ملائما لذوقه المرهف . فلقد كان كافافي ، دائما ، في سبيل البحث عن التناقضات الحادة والازمات المفاجئة ، اذ هو معنى ابدا بتلك الاحداث الصغيرة التي يرى فيها تعبيرا عن الانسان ، اكثر مما كان معنيا في دروس التاريخ الكبرى . وكان يعاني احساسا حادا عميقا بعودة الماضي اليه حيا ، بحيث يستطيع ان يفسر ذلك الماضي عن طريق الحاضر .

ان شعر كافافي خال من البهرجة والتزويق ، بالرغم من انه حاول في قصائده الاولى ، ان يزيد من تأثيره الشعري على القراء . غير انه ادرك ، بعد امد وجيز ، ان الرموز التي انتزعها من الماضي ، هي كل ماكان يحتاج اليه في خلقه الشعري . فشعر كافافي ، شعر دراماتيكي، من النسق الاعلى ، وهو شعر موضوعي في الوقت ذاته . وان الاسلوب الذي صيغ به هو الشعر يلائم ملاءمة خارقة تلك الدراماتيكية وهذه الموضوعية . فشعر كافافي ليس من الليريكية في شيء ، بل هو دراماتيكي فيالجوهر والموضوع . فالالفاظ التي يستخدمها كافافي في الشعر ، فيها من القوة والعنف ، مايجعلها قادرة على التعبير عما ينبغي ان يعبر عنه الشعر .. ان تلك الالفاظ ، تعكس العواطف والانفعالات والريب . والشكوك والشخوص ... انه شعر نستشعر جبروت قوته كلما أمعنا في قراءته . فالشخوص المنبعثة للحياة من الماضي السحيق ، انما تعود الى الحياة لتؤثر وتجتذب الاحياء . فكافافي يقف على الوسط الخطر، بين موقفين متطرفين ، وان وقوفه على هذا المنزلق الخطر قد أساء الى سمعته في اليونان ، اذ اضطر ان يستخدم الشائع من الالفاظ ، لا بل والمبتذلة احيانا ، من اجل ان يحقق ضربا من التأثير معينا ، كما فعل في قصيدته « بانتظار البرابرة » .

ومع ان كافافي قد عالج موضوعات واسعة ، الا انه كان يميل دائما الى تناول عنصر التناقض في ذات الانسان ، او بين الانسان والانسان ، او بين الانسان وظروفه واطماعه . الا ان ذلك كله ، لايؤلف الخصيصة الاساسية في آثاره . فهو يكشف عن تلك التناقضات التي تدور رحاها في الوجود الانساني ، بحيث يبدو امامها ، ان كل حل عسير المنال ، او مستحيل التحقيق . ومن هنا ، ان كافافي ، يعرض علينا الازمة الفردية، بصورتها الدراماتيكية . فالصراع هو دائما ، موضوع كافافي ، وهو يرى ان تحويل الصراع ، الى عنصر دراماتيكي هو الشيء الوحيد الصادق بالنسبة للطبيعة الانسانية . وهو في قصائده ، لايكاد يقص علينا اية قصة ، بل هو يفنى نفسه بلباب المواقف وجوهرها ، حيث العوامل الانسانية تعمل عملها ، ثم يعود فيمحص كل متناقض كامن في اعماق الروح الانسانية .

أن مواقف كافافي تتفاوت في نوعية صراعاتها ، ذلك ان التناقضات

تطلب ((الاداب))

في الجزائر من :

دار الكتاب

لصاحبها السيد خالد القرطبي

نهج كولو غلي رقم ٤ ـ بليدة ـ الجزائر

التي تتفجر داخل النفس الانسانية لها اسباب عديدة تولدها وتستحثها. فالانماط التي يصورها لنا كافافي ، انماط شائعة ، يمكن ان تجد نماذج منها في مصر والهند ،وفي كل قطر يقف متوترا مابين تقاليده وبين ماتلقاه من الخارج . ويمكن ان نعثر على مثل هذا التناقض عند كل انسان مشدود مابين المتعة والتقشف ، مشدود مابين الروح والجسد .

ففي قصيدة « كاهن معبد سيرابيس » نجد كافافي يعرض علينا الصراع الذي تدور رحاه بين اليقين الديني والحب الطبيعي . فبطل هذه القصيدة شاب فقد أباه . اما الرابطة بينه وبين أبيه فكانت من هذا النوع من الشد العنيف ...

هذا هو منطلق القصيدة . فالشاب يؤمن ايمانا لايتزعزع بأحكام الكنيسة ، ويرفض رفضا قاطعا كل مناهض للمسيح .

ولكن الانسان يقع دائما وابدا في ذلك التناقض الابدي .. هو التناقض بين فرضياته وكبريائه . فهو يخطط ويأمل ويعمل ، كما لوكان مايعتقد هو الحق الذي لاسبيل الى الشك فيه ، غير ان الحق يظل بعيدا كل البعد عما يرى ويعتقد . وان هذه السخرية التي تحتفظ بها الظروف للانسان ، كانت الموضوع المحبب دائما لتوماس هاردي ، والتي احالها في آثاره الى اهداف مأساوية رفيعة في حياة الانسان . فنحن نستشعر احيانا ان الظروف تعمل وتخطط كما لو كانت عن سابق قصد وتصميم ، لتحبط مساعي الانسان . وان الاغارقة قد استخدموا هذا التناظر بين فرضيات الانسان وظروفه الواقعية ، استخداما كاملا .وذلك هو بالضبط « القدر » الذي يحاول الانسان عبثا ان يتخطاه ، الى ان تحين اللحظة الموانية ، فيضرب القدر ضربته .

ولقد وضع كافافي هذه التجربة في قصيدته « حد نيرون » . فبعد ان يقتل نيرون أمه ، يقوم بزيارة الى اليونان هو وزوجته ، ويزوران « دلفي » حيث تقول له المعجزة هناك : « حذار من ثلاثة اعوام ، ومن سبعين عاما » .ويظن نيرون ان الثلاثة والسبعين عاما هي الحد الذي ستنتهي عنده حياته ، فلا يكرث نفسه بذلك ، وهو في ريق الشباب ، فيطرح القلق ويلقي بنظرة الى ماقضاه من ايام في اليونان :

«... في المسارح ، في الحدائق ، في الملاعب ،
ساعات المساء في مدائن آكيا ،
والافضل من ذلك ، نور الاجساد العارية ... »

هذا هو وهم نيرون ... تلك هي وجهة مصيره . فقد كانت تلك السنة هي السنة التي اطاح بها « غلبا » بنيرون من العرش . وهنا ينتقل كافافي من مشهد الوهم الى مشهد الواقع .

« ... فان غلبا يقوم سرا في اسبانيا
بتجميع جيشه واعداده
انه هو الرجل ذو الثلاثة والسبعين عاما » .

وفي قصيدة « أحد آلهتهم » يلتقط كافافي موضوعا استمد من العالم الاغريقي ، له مشابه من ذلك الفصل الذي نجده في كتاب «اعمال الرسل » في العهد الجديد ، حيث نجد ان ليسترا بول بارناباس يؤخذ الى المريخ والمشترى .

اما تطلع كافافي لاتجاه حركة الروح الانساني ، فهو اكثر من محض اهتمام فكري . ففي قصيدته « في منطقة ما من آسيا » نجد كافافي يعالج موضوع اندحار انطونيو امام اوكتافيوس ، في معركة أكتيوم الفاصلة في التاريخ* ، والتي كانت بنظر فرجيل وهوراس نصر لروما الحقيقية على روما المنحلة . وان كافافي يعمد الى تصوير هذه اللحظة : لحظة انهيار انطونيو ، حيث تتسامع انباء ذلك الانهيار شعوب اسيا الصغرى.. يرد هذا النبأ العظيم الى اناس كانوا يؤمنون بنصره الاكيد ، ولكنهم في تلك اللحظة بالذات ، يتسامعون النبأ كان شيئا لم يقع ، فلم يعد انطونيو يعني أي شيء بالنسبة اليهم .

لقد كانوا يقولون عن انطونيو « انه الذي خلص الرومان من أكتافيوس الهدام . » اما الان ، فهم يقولون هذه الجملة بالذات ، مع « تغيير طفيف » ... انهم يحذفون اسم اكتافيوس ويضعون اسم انطونيو مكانه .. « انه هو الذي خلص الرومان ، من انطونيو الهدام !!!»

الفارق هو كلمة واحدة لاغير !!

وفي قصيدته « ارسطو بولوس » يبدأ كافافي القصيدة بمشهد الحزن في بيت « هيرود » . فالملك قد استبد به الحزن ، لان « ارسطوبولوس » قد غرق ، وجميع من في سوريا حزانى ، أفقدهم الحزن صوابهم ، لاسيما الفنانين والشعراء الذين اعجبوا بأرسطوبولوس غير اننا نسمع صرخة مريعة : هي صرخة ام « ارسطوبولوس » ...

« هي تنتحب وتهذي وتشتم
فلكم خدعوها !.. لكم غرروا بها
ولكم نالوا ماأرادوا !
ثم انهم تركوا الدار « الاسمونية » خرابا !
كيف أفلح الملك الشرير
الخائن .. الوضيع .. الفاتك »

ذلك ان « ارسطوبولوس » لم يمت الا بيد « هيرود » نفسه ، وان الاحزان التي تشيع في قصر « هيرود » لم تكن سوى احزان زائفة باطلة ... حتى حزن ام « ارسطوبولوس » على ابنها ، قد تضاءل امام حقدها على الملك .

تبدأ القصيدة بجو كاذب من العواطف . ثم تتحرك القصيدة في اعماق جديدة ، تضيع فيها الكراهية والالام في صلب الدراما .

اما في قصيدته « مرض كليتوس » فان كافافي يفتتحها بموقف

* لم تكن معركة اكتيوم ـ كما أظن ـ انتصارا لروح روما الحقيقية على روح روما المنحلة ، بل كانت سقوطا مريعا في وجهة التاريخ وسياقه ، لانها هي بداية عصر الانحلال الفكري الذي ساد في الالف سنة التالية . فلقد كان انطونيو يمثل اخر اشعاعة للروح الرومانية القوية التاسعة ، بينما مثل أكتافيوس روح السقوط والانحلال والعزلة عن الكون في فوضى الغيبية العمياء

في المكتبات

انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير ان يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المغامرة التي ادت الى انتصارها : كيف اصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يزالان يواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

منشورات دار الاداب ـ بيروت

الثمن اربع ليرات لبنانية او ما يعادلها

شبه عاطفي ، ذلك ان كليتوس ذلك الاغريقي الرفيع قد انهار بسبب اخفاقه في الحب . تلك هي البداية ، ولسنا بحاجة للنهاية ، اذ اننا نستطيع التعرف عليها من خلال تعاطف كافافي مع كليتوس وامثاله، ومن خلال حرصهم على مصائرهم . ويطور كافافي القصيدة تطويرا اشبه مايكون بالمفاجاة ، اذ يصور لنا مربية كليتوس التي اهتدت الى المسيحية توا ، تعود فتقدم الكعك والنبيذ والعسل ، الى الصنم الذي تعبده قبل تنصرها . فهنا تحل العواطف ذات التركيب المعقد ، محل عواطف كليتوس البسيطة الناصعة .

فكافافي الذي يتعاطف دوما مع الضعف الانساني ، لايغمض بصره ايضا عن القوة الانسانية وجوهرها . فلقد كتب قصائده الاولى التي مجد بها قوة الصبر والاحتمال ، ثم وسع من مدى رؤياه فمجد هذه الفضائل اكثر من ذي قبل .

ان كافافي كمعظم الاغارقة يكن حبا حقيقيا عميقا ، واعجابا حادا بالجراة والاقدام ، ومواجهة اصعب المواقف واعسرها دونما تذمر او استياء ، فلا جرم ان تكون اروع قصائده تلك التي يصور فيها تفوق الانسان .

ومن خصائص كافافي قدرته الخارقة على ان تظل رؤياه التي يسلطها على الشخصيات واضحة ، حتى في حالة اعجابه بتلك الشخصيات.

ففي قصيدته « داريوس » يسحب كافافي امامنا مشهدا في بنتوس ايام حكم ثرياداتيس السادس ، قبل ان يعلن الرومان الحرب على داريوس . وكان فرنازيس الشاعر يكتب يومذاك ملحمة شعرية عن داريوس . ويحاول الشاعر ان يصور لنا شخصية داريوس وبواعثه النفسية . وفي لحظة خاطفة يصور لنا كافافي كيف ان خادما يدخل لينهي نبا اعلان الرومان الحرب ، وعبور جيش ثرياداتيس الحدود . وهنا يبتهل الشاعر ان تستطيع اسيا الدفاع عن نفسها امام الاعداء .

وبالرغم من فهم كافافي الثاقب للعقيدة الاولومبية ، الا انه مدين للمسيحية بالشيء الكثير . فلقد اثبت ، في كثير من قصائده ، ان المسيحية مازالت حية صادقة ، بل ومخلصة لاهدافها . ومثال ذلك ، ماقدمه لنا في قصيدته « موكب الكهان والعلمانيين الكبير » ، حيث انتقى فيها مناسبة تاريخية رائعة ، وصورها بشعر ينبض بالحق .

ان كافافي ، في عملية اعادة الخلق التاريخي ، يقدم لنا رؤياه الخاصة ازاء الحياة ، وبشكل ايجابي . فهو يركز على شخصيات مرضية وظروف شاذة . ولعل هذه الخصيصة بالذات هي موطن الاتهام ضد كافافي . على انه ، تمكن ، على اية حال ، ان يحصل على ذاتيته اكثر ثقة واطمئنانا مما وجده في الحاضر ، اذ ان جلال التاريخ قد اعطاه الحرية في الحركة وفي ممارسة امكانياته وطاقاته الشعرية الى اقصى حد .

وعلى اية حال ايضا ، ان هذا الاهتمام العميق في الماضي ، لم يكن هروبا من الحياة ، بل كان هو الاهتمام الاشد فيها . فعملية المجانسة المعقدة بين ذاته وبين الشخصيات التاريخية السحيقة ، كانت هي ، بحد ذاتها ، عملية توسيع وترحيب بشخصيته في كافة الابعاد .

واخيرا فان ما حققه كافافي ، يعتبر نصرا جليلا للشعر . فكل قصيدة من قصائده ، تؤدي مهمتها بنجاح منقطع النظير .. ان ماحققه يعتبر انتصارا للتجربة الشعرية ، ذلك ان شعر كافافي ، في حدود تجربته هذه ، شعر يسحر الذهن ، وتساهم كل لفظة فيه بتحقيق الاثر النهائي .وحتى التفاوت في نغم القصيدة ،انما يخدم العنصر الدراماتيكي مع انه كان يرفض الكتابة بالاساليب الفخمة الجليلة ، التي كان قد مارسها في مطلع حياته الشعرية ..

فكافافي هو شاعر المزاوجة بين الرعشة الشعرية النقية والاحساس الكامل بتعقيدات الضمير الحديث ، وهو قد وعي هذه المعضلة ، قبل ان تتضح في اذهان كثير من شعراء اوروبا المعاصرين .

عرض وتلخيص

القاهرة — **محيي الدين اسماعيل**

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السأم

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت